شعب كنيسة مار مرقس بشمال شُبرا – القاهرة
الصَّوم المقدَّس الكبير
السَّبت ١٩ مارس ٢٠١٦م

خُدَّام وخادمات الكاتدرائيَّة المرقسيَّة بالإسكندريَّة
الصَّوم المقدَّس الكبير
الخميس ١٥ إبريل ٢٠١٦م

سرّ التَّوبة والاعتراف

الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

الغاية من سرّ التَّوبة والاعتراف

إنَّ الغاية من سرّ التَّوبة، هو مغفرة الخطيئة للإنسان الذي أخطأ، سواء إلى الله، إذ قد أهان الخاطئ محبَّة الله لـــه، أو إلى الكنيسة، لأنه كعضو في جسد المسيح الذي هو الكنيسة، يُضر ببقية الأعضاء، ويُضعف وحدانيَّتها. «وكان لجمهور الـــذين آمنوا، قلب واحد، ونفس واحدة» (أعمال ٤:٣٢). فالمسيح الذي هو رباط الوحدة لكلِّ أعضاء الكنيسة، لا يمكن أن ينقسم.

ولكن من المهم أن نعرف أنَّ سرّ التَّوبة لا يقف عند مجرد غفران الخطيئة للإنسان التَّائب، لأنَّ التَّوبة أعمق من هـــذا بكـــثير، فهي فعل تغيير مستمر في حياة الإنسان، من حياة حسب الجسد، إلى حياة حسب الرُّوح، وليس لغفران الخطيئة فحسب.

والآن، نحصر كلامنا عن فعل التَّوبة في غفران خطيئة الإنسان. فالتَّوبة تعيد للإنسان التَّائب ثوبَ المعموديَّة أبيضاً كما ارتـــداه يوم معموديَّته، أي ثوب الخلاص. يقول الرُّوح: «من يغلب، فذلك سيلبس ثياباً بيضاً، ولن أمحو اسمه من سفر الحياة» (رؤيـــا ٣:٥). فإن كان من المهم أنْ نرتدي هذا الثَّوب الأبيض في يوم معموديتنا، فالأهم هو أن نصل به أبيضاً إلى السَّماء. فالتَّوبة هي التي تجـــدد ثوب معموديَّتِنا.

يقول القدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م) أُسقُف ميلان:

> [حسنةٌ هي التَّوبة، فإنْ لم يكن لها مكانٌ في قلبك، فستخسر نعمةَ الغسْل التي نلتها في المعموديَّة منذ أمد بعيد. فإنه من الأفضل أن يكون لنا ثوبٌ نُصلحه، عن أن لا يكون لنا ثوبٌ نرتديه. ولكن إذ أُعدَّ لنا الثَّوب مرَّة، فيجب أن يتجدَّد].

التَّوبة هي حياة تبدأ بالميلاد من الله في المعموديَّة، وتنتهي بالاتحاد به. ولأنَّ المعموديَّةَ سرٌّ، والاتحاد بالله سرٌّ أيضاً، فقـــد لزم أن تكون التَّوبة سرٌّ هي الأُخرى. أي سرُّ الحياة مع الله. فالمعموديَّة هي سرُّ الميلاد من الله، والتَّوبة هي سرُّ الحياة مع الله، والإفخارستيَّا هي سرُّ الاتحاد بالله.

المعموديَّة هي التَّوبةُ الأولى، وقبول حياة جديدة في طبيعة الإنسان التي فسدت بسبب الخطيئة. والتَّوبة هي تجديدٌ مستمر للمعموديَّة الأولى، بقبول مغفرة دائمة عن الخطايا اليوميَّة، لدوام الحياة مع الله وفيه، بالرُّوح القُدُس السَّاكن فينا.

أي أنَّ المعموديَّة إذا لم تسندها التَّوبة، تفقد فاعليتها. فالتَّوبة هي سرُّ تجديد ودوام فعل هذا الميلاد الثَّاني. فالإنسان المولود من الرُّوح، إذا لم يسلك بحسب الرُّوح، يطغى عليه الجسد، وتسود عليه الخطيئة، ويموت ثانية كما مات آدم أولاً. وهذا هو الموت الثَّاني الذي أشار إليه سفر الرؤيا[١].

الموت الثَّاني هو موت الخطيئة، أمَّا الموت الأوَّل فهو الموت الذي جُزناه في المعموديَّة عندما مُتنا مع المسيح، ومات فيه إنســـاننا القديم. ولمَّا قُمنا مع المسيح بالمعموديَّة، صارت هذه هي قيامتنا الأولى. أمَّا قيامتنا الثَّانية فهي عند مجيء الرَّب في اليَوم الأخير.

١- رؤيا ٦:٢٠

إذاً، المعموديَّة والتَّوبة، هما صنوان لا يفترقان، والذي يعدم أحدَهما يعدم الآخر بالضَّرورة. فالمعموديَّة تُقيم التَّوبة، وتجعل منها معنى مسيحياً لا تعرفه ديانةٌ أُخرى. لأنَّ غاية التَّوبة هي الاتحاد بالله، والاتحاد به لا يكون إلاَّ بالميلاد منه أوَّلاً، وهذا لا يكون إلاَّ بالمعموديَّة. أمَّا سرّ الإفخارستيَّا أي تناولنا من جسد الرَّب ودمه الكريمين، فهو ثمرة سرِّ التَّوبة وجزاؤها. هذا هو السِّر العظيم، سرّ الإفخارستيَّا، الذي صار لنا طُهراً وخلاصاً ونعمة وغفراناً للخطايا وحياةً أبديَّة".

عقيدة غفران الخطايا في الإيمان المسيحي

بحسب الإيمان المسيحي، فإنَّ عقيدة غفران الخطايا تندرج تحت البنود الآتية:

البند الأوَّل: أنه لا يغفر الخطايا إلاَّ الله وحدَه

لَّما شفى الرَّب المفلوج، قال له: «يا بُنيَّ مغفورةٌ لك خطاياك. وكان قوم من الكَتَبة هناك جالسين يفكِّرون في قلوبهم: لماذا يتكلَّم هذا هكذا بتجاديف؟ من يقدر أن يغفر خطايا إلاَّ الله وحدَه؟ فللوقت شعر يسوع بروحه، أنهم يفكرون هكذا في أنفسهم. فقال لهم: لماذا تفكِّرون بهذا في قلوبكم؟ أيُّما أيسر أن يُقال للمفلوج: مغفورة لك خطاياك، أم أن يُقال: قُم واحمل سريرك وامش؟ ولكن لكي تعلموا أنَّ لابن الإنسان سُلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا، قال للمفلوج: لك أقول قُم واحمل سريرك واذهب إلى بيتك. فقام للوقت وحمل السَّرير وخرج قُدَّام الكُل، حتى بُهت الجميع، ومجَّدوا الله قائلين: ما رأينا مثل هذا قط» (مرقس ٢:٥-١٢)

ويقول المزمور: «إنْ كنتَ تراقب الآثامَ ياربُّ، ياربُّ من يثبُت، لأنَّ من عندك المغفرة» (مزمور ١٣٠:٤).

ويقول القدِّيس بطرس الرَّسول عن المسيح له المجد: «هذا رفَّعه الله بيمينه، رئيساً ومخلِّصاً، ليعطي ... التَّوبة وغفران الخطايا» (أعمال ٥:٣١).

البند الثَّاني: أنه بدون سفك دم لا تحصُل مغفرة (عبرانيِّين ٩:٢٢)

تقارن الرِّسالة إلى العبرانيِّين، بين دم الثِّيران والتُّيوس التي كانت تُقدَّم في القديم، وبين دم المسيح على الصَّليب، فتقول: «ليس بدم تيوس وعجول، بل بدم نفسه دخل مرَّة واحدة إلى الأقداس، فوَجَدَ فداء أبدياً» (عبرانيِّين ٩:١٢).

ويقول بطرس الرَّسول: «عالمين أنكم افتُديتم ... بدم كريم، كما من حمل بلا عيب ولا دنس، دم المسيح» (١بطرس ١:١٩).

ويقول القدِّيس يوحنَّا الرَّسول: «دمُ يسوع المسيح يُطهِّرنا من كلِّ خطيئة» (١يوحنَّا ١:٧).

ونصلي في إحدى صلوات الكنيسة: "وطُعن في جنبه بالحربة، وجرى منه دمٌ وماءٌ غفراناً لكلِّ العالم".

لكن لماذا كان يلزم موت المسيح ويُسفك دمه على الصَّليب؟

لقد خُلق الإنسان من العدم بنُطق إلهي، على صورة الله ومثاله. ولَّما خالف الوصيَّة سقط وطُرد من حضرة الله. ولم يكن يكفي نُطقٌ إلهيٌّ آخر ليغفر للإنسان سقوطه، لأنَّ الخطيئة التي سقط فيها الإنسان الأوَّل بسبب المخالفة، قد أفضت به إلى الموت «يوم تأكل منها، موتاً تموت» (تكوين ٢:١٧). وهكذا «بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم، وبالخطيئة الموت. وهكذا اجتاز الموتُ إلى جميع النَّاس إذ أخطأ الجميع» (رومية ٥:١٢). فلصق الموتُ والفسادُ بالإنسان. وهكذا نَفُذَ حُكمُ الله في الإنسان «موتاً تموت». ولكن لم يكن يليق أن يبقى الإنسان الذي خلقه الله بنسمة فيه، وعلى صورته ومثاله، قابعاً في الموت أبداً، فكان مطلوباً أن تمتزج به الحياة لتُبيد الموت الذي لصق به.

ومن أجل ذلك، أخذ ابنُ الله جسداً من العذراء، التي هي منَّا، وفي شخص المسيح له المجد، اتحد اللاَّهوت بالنَّاسوت بسرٍّ لا يُعبَّر عنه. فلبس المُخلِّص جسداً من أجسادنا القابلة للموت، متَّحداً بلاهوت لا يموت. وبموت المسيح بالجسد، أُبيد الموت، إذ لم يكن ممكناً أن يُمسك منه، لأنه هو الحياة. وهكذا بموت المُخلِّص على الصَّليب مُتنا فيه، وبقيامته من بين الأموات، قُمنا فيه ومعه.

نقول في صلاة القسمة لعيد القيامة: "هذا هو الجسد الذي أخذه من سيِّدتنا وملكتنا كلنا القدِّيسة مريم، وجعله واحداً مع لاهوته ... رفع قدِّيسيه معه إلى العُلى، وأعطاهم قرباناً لأبيه. بذوقه الموت عنَّا خلَّص الأحياء، وأعطى النِّياح للذين ماتوا".

ونقول في صلاة القسمة في عيد القيامة والخمسين المقدَّسة: ''الذي من قبل صليبه، نزل إلى الجحيم، ورد أبانا آدمَ وبنيه إلى الفردوس. ودفننا معه. بموته أبطل عزَّ الموت''. ويقول القدِّيس بولس الرَّسول: «وأقامنا معه» (أفسس ٢:٦).

وهكذا، كلُّ الذين يؤمنون بالمسيح إلهاً ومخلِّصاً، ويؤمنون بأنَّ دمه الإلهي المسفوك على الصَّليب، هو للغُفران والخلاص لكلِّ من يطلُب، ينالون حتماً الغفران والخلاص. فإنْ صلَّينا في بيوتنا، كلٌّ واحد في مخدعه، وطلبنا غفران المسيح وصفحه عن خطايانا، هل يغفرها لنا؟ الرَّب نفسه يجيب عن هذا السؤال بقوله: «كلُّ ما تطلبونه حينما تُصلُّون، فآمنوا أنْ تنالوه، فيكون لكم» (مرقس ١١:٢٤). «إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي. اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً» (يوحنَّا ١٦:٢٤).

فإنْ كنَّا قد حصُلنا على غفران خطايانا، بصلاتنا إلى المسيح في مخدعنا، فلماذا نذهب إلى الأب الكاهن في الكنيسة، في سرّ التَّوبة والاعتراف؟ وهذا يقودنا إلى البند الثَّالث، في عقيدة غفران الخطايا.

البند الثَّالث: المغفرة تستوجب مصالحة الكنيسة

لقد سبق أن أوضحتُ في مستهل الحديث بأنَّ الخاطئ حينما يخطئ، يخطئ إلى الله، وإلى الكنيسة أيضاً، لأنه عضو من أعضائها، وإن تداعى عضوٌ تداعت له باقي الأعضاء. لذلك كان يلزم أن يتصالح الخاطئ مع الجماعة، ليعود إليه حق الشَّركة معهم. ومن هنا كانت أهميَّة سرّ التَّوبة والاعتراف. فنحن لا نستطيع أن نتمِّم توبتنا إلاَّ من داخل الكنيسة.

فالاعتراف ἐξομολογήσις يعني في المفهوم الكنسي، الشَّهادة، وله عدَّة معان. المعنى الأوَّل: الإقرار والمجاهرة بالإيمان[٢]. المعنى الثَّاني: الشُّكر والحمد[٣]. المعنى الثَّالث: مقبرة الشَّهيد، تُسمى ''الشَّهادة''، أو ''موضع الشَّهادة''[٤]. أمَّا المعنى الرَّابع والذي يهمنا الآن، فهو: الإقرار بالخطيئة والاعتراف بها. فإلى جانب الإقرار بالخطيئة أمام الله، وهو أمرٌ هامٌ وأساسيٌّ في الحصول على الغفران، يأتي أيضاً إقرار الخاطئ بخطيئته أمام الجماعة كلِّها. هذا الإقرار كان في بدايته المبكِّرة، إقراراً علنياً، بعده يدخل المعترف إلى الكنيسة لينال صلاة التَّحليل من داخل الصَّلوات اللِّيتورجيَّة، ثمَّ تحول هذا الاعتراف العلني إلى اعتراف سرِّي على الكاهن، كممثل ونائب عن الجماعة كلِّها.

ويعدِّد العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) وسائل غفران الخطايا[٥] في: المعموديَّة (مرقس ١:٤)، الاستشهاد والذي يلزم أن يكون بالفم قبل الدَّم، الصَّدَقة (لوقا ١١: ٤١)، مغفرتنا لخطايا إخوتنا (متى ٦:١٤، ١٥) (متى ٦:١٢)، عندما يرد أحدٌ خاطئاً عن ضلال طريقه (يعقوب ٥:٢٠)، غزارة المحبَّة (لوقا ٧:٤٧)، التَّناول من جسد الرَّب ودمه الكريمين (متى ٢٦:٢٧، ٢٨). أمَّا الوسيلة الثَّامنة، فيقول عنها إنها:

> [تلك التي نحصل عليها من خلال أعمال التَّوبة – مع أنها حقاً صعبةٌ وشاقة – وذلك عندما يغسل الخاطئ سريره بدموعه (مزمور ٦:٧). عندما تصير له دموعُهُ خُبزاً، نهاراً وليلاً (مزمور ٤١:٤). عندما لا يخجل (الخاطئ) بالاعتراف بخطاياه لكاهن الرَّب، ويلتمس الشِّفاء (مزمور ٣١:٥)، (يعقوب ٥:١٤- ١٥)].

كما يشرح العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) أنَّ الاعتراف بالخطايا في زمانه، هو على مستويين، المستوى العلني أمام الجماعة، وهو الأقدم في الكنيسة، والمستوى السِّري، أي الاعتراف الشَّفهي auricular confession على الكاهن فماً لأُذُن، فيقول:

٢- انظر: ١تيموثاوس ٦:١٣ ؛ لوقا ١٢:٨ ؛ متى ١٠:٣٢

٣- الهوس الثَّاني، ''اعترفوا للرَّب، فإنه صالح، وأنَّ إلى الأبد رحمته''. والفعل ''اعترفوا''، جاء في القبطيَّة ⲟⲩⲱⲛϩ ⲉⲃⲟⲗ ويعني أيضاً ''اشكروا''.

٤- انظر: رؤيا ٦:٩

5- Origen, *Fathers of the Church*, volume 83, *Homilies on Leviticus* ; Origen, *Commentary on Matthew, 86*, Die griechischen christlichen Schriftsteller der ersten drei Jahrhunderte, Leipzig, (*GCS*) 38. 2:199-200, Cited by, *Ancient Christian Commentary on Scripture, New Testament Ib, Matthew 14-28*, USA, 2002, p. 348 ; Cf. also, Origène, *Homélies sur Jérémie*, Traduction par, Pierre Husson & Pierre Nautin, *SC* 238, 1977, p.16, 17.

[إنَّ الاعتراف العلني بالخطايا ἐξομολόγησις من الوسائل النَّاجعة والمؤثِّرة][٦].
[لكي تُصبح توبة الخاطئ **كاملة**، يتحتَّم الاعتراف على كاهن الله][٧].

وهي أوَّل إشارة واضحة ترد إلينا من كنيسة الإسكندريَّة، تُثبت وجود الاعتراف السِّري على الكاهن، في هذا الوقت المبكِّر من تاريخها. وفي ذلك يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م):
[كما أنَّ المعمَّد يستنير بنعمة الرُّوح القُدُس، هكذا بواسطة الكاهن، ينال التَّائب الغُفران بنعمة المسيح][٨].

هذا في الشَّرق المسيحي. وأمَّا في الغرب المسيحي فنعرف أنَّ سرَّ التَّوبة كان كثير الاستخدام، وأصبح نظاماً كنسيًّا في النِّصف الثَّاني من القرن الثَّاني وأوائل الثَّالث. فيشرح العلاَّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م) كيف ينال الخاطئ الحِل من الكنيسة بعد اعترافه بخطاياه، جالساً على الرَّماد، ولابساً المسوح، ويكون طعامه الخُبزُ والماءُ فقط.

ولقد أعطت الكنيسة للمعترف، ومنذ بواكيرها الأولى، أن يدقِّق في اختيار أب اعتراف. حيث يخاطب العلاَّمة أوريجانوس المعترِف قائلاً له:
[دقِّقَ باهتمام عند من تعترف بخطاياك. عليك أولاً أن تضع الطَّبيب تحت الاختبار، حتى تعرف إنْ كان قادراً أن يكون ضعيفاً مع الضُّعفاء، وباكياً مع الباكين. وانظر إنْ كان يعتقد أن وجعك (خطيئتك) هي من النَّوع الذي ينبغي أن يُعرف ويُشفى في حضرة الجماعة المجتمعة، فاتبع المشورة إن كان الطَّبيبُ متمرِّساً ومختبراً][٩].

وفي قول مهمٌ للغاية، يتحدَّث العلاَّمة أوريجانوس عن الكهنة الذين يتقبَّلون سرَّ الاعتراف، فيقول عنهم:
[يوجد كهنة هُم بالحق، كهنة للكاهن الأعظم. هؤلاء تقبَّلوا معرفة الشِّفاء الذي ينحدر من الله. وتعلَّموا من الرُّوح القُدُس عمَّا يختص بالخطايا التي ينبغي أن يرفعوا عنها ذبيحة، ومتى يكون ذلك، وبأيِّ كيفيَّة. كما تعلَّموا أيُّ الخطايا التي لا ينبغي أن يصنعوا لها هكذا][١٠].

ومن أجل هذا، لم تكن الكنيسة تسمح لأيِّ كاهن أن يتقبَّل اعترافات الشَّعب إلاَّ بعد فترة يحدِّدها الأُسقُف بنفسه، يسمح بعدها للكاهن الذي يراه أهلاً لذلك أن يتقبَّل اعترافات التَّائبين. وحتى إذا لم يكن الأمر كذلك، فالشَّعب لديه من الحاسة الرُّوحيَّة، ما يجعله ينجذب نحو الكاهن الذي يحمل روحَ القسِّيسيَّة، وليس شكلَها فقط.

لقد تقبَّل الكاهن من الأُسقُف نفخة الرُّوح القُدُس يوم رسامته، ليمارس أسرار الكنيسة وطقوسها. أمَّا موهبة شفاء النُّفوس، فلم يفهمها آباء الكنيسة على أنها امتياز إلهي مكتسب، بل هي قوَّة يهبها الله بروحه لمن يريد، كأحد المواهب المتعدِّدة الأنواع التي يمنحها الرُّوح الواحد لبنيان الجماعة وعافيتها وسلامة أعضائها وشفائها.

لقد أعطى السيِّد المسيح للكنيسة سُلطان غفران الخطايا، لتقود أولادها بهذا السُّلطان الممنوح لها من الله إلى أبيهم السَّماوي، وذلك بقوله: «من غفرتم خطاياه تُغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت» (يوحنَّا ٢٠:٢٣)، ولكن بضمان واحد يحمي هذا السُّلطان من الشَّطط، ولا يجعله أداةً في يد الكاهن لتحقيق غاياتٍ شخصيَّة أو أهواءَ ذاتيَّة لا تمجِّد الله، ولا تشهد لنعمته، وبعيدة عن الهدف الواحد والوحيد وهو خلاص النُّفوس وشفائها. هذا الضَّمان هو في قول الرَّب قبل أن يمنح هذا السُّلطان مباشرة: «اقبلوا الرُّوح القُدُس» (يوحنَّا ٢٠:٢٢). فكلُّ كاهن قَبل عمل الرُّوح القُدُس فيه، يغفر خطايا الخاطئ ليس بشخصه، بل بالرُّوح القُدُس الذي يمنحه هذا السُّلطان. والرُّوح القُدُس لا يمكن أن يعمل عملاً لا يمجِّد المسيح، ولا يمكن أن يعمل عملاً لا يشهد للمسيح، ولا يمكن أن يعمل عملاً يسبِّب تشويشاً وعثرة للنَّفس. بل إنَّ عمل الرُّوح القُدُس مملوءٌ سلاماً وفرحاً وبنياناً وخلاصاً،

٦- عظة ١ على مزمور ٣٦، فصل ٥
٧- عظة على سفر اللاويِّين (٤:٢).
٨- (ضد النُّواتيِّين).
٩- عظة ٣٧ على سفر المزامير.
١٠- ويقصد بها - طبقاً لما ورد في بقيَّة النَّص - خطايا عبادة الأوثان، والزِّنا، والنَّجاسة.

وفي ذات الوقت توبيخاً وتبكيتاً وتهذيباً وتشجيعاً.

وإنَّ موجز تعليم الكنيسة وإيمانها في هذا الأمر، ينحصر في قول الكاهن: ''فليكن يا سيِّد عبيدك آبائي وإخوتي وضعفي، محاللين من فمي، بروحك القدُّوس''.

انحسار غفران الخطايا في الاعتراف السِّري على الكاهن

مع حلول نهايات القرن الرَّابع الميلادي، وبعد أنْ صار متعذِّراً على الكثيرين أن يعترفوا علناً بخطاياهم أمام الجماعة، أصدر نكتاريوس بطريرك القُسطنطينيَّة (٣٨١- ٣٩٧م) في سنة ٣٩٠م، قراراً بتوقيف الاعتراف العلني في الكنيسة. فشاع الاعتراف السِّري على الكاهن. وابتداء من القرن السَّابع الميلادي اتَّجهت الكنيسة البيزنطيَّة إلى اعتبار أنَّ الاعتراف على الكاهن، هو الطَّريق الوحيد للحصول على مغفرة الخطايا! وقد تبنَّى هذا الاتجاه ودافع عنه أناستاسيوس السِّينائي (+ ٧٠٠م) رئيس دير سانت كاترين في صحراء سيناء.

ومع مرور السنين، أصبح السِّر الكنسي كسرِّ توبة واعتراف، ينحصر رويداً رويداً في مجرَّد الاعتراف بالخطيئة على الكاهن، وذلك على حساب التَّوبة أمام الله أوَّلاً، والإيقان بأنَّ دم المسيح يطهر من كل خطيئة. فتعطَّل النُّمو الرُّوحي للمعترف، و لم يستطع أن يتخلَّص من الخطيئة التي اعترف بها مراراً، فصار تكرار الاعتراف بالخطيئة، لا يشفيها.

وبسبب انتقال الاعتراف من اعتراف علني أمام الجماعة، إلى اعتراف سري أمام الكاهن كنائب عن الجماعة، ظهرت ممارسة ليتورجيَّة مزدوجة، وهي ''صلاة التَّحليل'' التي صارت تُقال على رأس المعترف، ثمَّ تُكرَّر مرَّة أُخرى في القُدَّاس الإلهي. فلقد ظلَّت الكنيسة تمارس الإقرار بالخطايا، سواء الجهاريَّة أو السِّرِّيَّة، على أن يكون التَّحليل في داخل اللِّيتورجيَّا نفسها. وأمَّا الذي أوجد هذا التَّداخل، فهو أنَّ الاعتراف بالخطايا كان يسبق اللِّيتورجيَّا مباشرة، كتمهيد حتمي للمصالحة بين أعضاء الكنيسة، قبل تقديم الذَّبيحة المقدَّسة.

ويقول الأب ألكسندر شميمان (+١٩٨٣م) في كتابه ''الصَّوم الكبير''[١١]:

''ما هو دور سرِّ الاعتراف في التَّهيئة للتَّناول؟ إنَّ طرح هذا السؤال واجب، لأنه في كثير من الكنائس الأرثوذكسيَّة، تنمو عقيدة أصبحت مقبولة اليَوم عموماً، تؤكِّد أنَّ المناولة للعلمانيِّين مستحيلة بدون الاعتراف والحِل.

ولو رغب المرء أن يتناول مراراً، فعليه في كلِّ مرَّة أن يعترف، أو على الأقل أن يذهب إلى الكاهن ليحاللـه. لقد حان الوقت أن نقول علناً: إنه مهما كانت الأسباب التي دعت إلى هذه العقيدة وممارستها، فهي لا أساس لها في التَّقليد، وهي تقود إلى انحرافات خطيرة في العقيدة الأرثوذكسيَّة للكنيسة، وسرِّي الشُّكر والتَّوبة فيها''[١٢].

في الختام: أشير إلى أمرين:

الأوَّل: أنَّ الكنيسة الكاثوليكيَّة تُعلِّم بقولها: ''إنَّ توقيع العقوبة على الخاطئ، هو جزءٌ أساسي في غفرانها، باعتبار أنه من الأفضل أن يقاسي الخاطئ العقوبة هنا في هذا العالم عن معاناته بسببها هناك في العالم الآتي، إلاَّ أنَّ الجانب الرَّئيسي في غفران الخطيئة هو بواسطة كفارة المسيح على الصَّليب''[١٣]. وواضحٌ هنا – طبقاً لهذا التَّعليم – أنَّ دم المسيح وإن كان يحتل الجانب الرَّئيسي في غفران الخطيئة، إلاَّ أنَّ هذا الغفران يحتاج إلى جوانب فرعيَّة لتكميله، وهذا ما لم تعلِّم به الدِّسقوليَّة، ولا المراسيم الرَّسوليَّة، أو أيُّ واحد من آباء الكنيسة في القرون الأولى لها.

١١– انظر: مجلَّة النُّور، العدد ٤، سنة ١٩٨٥م.

١٢– لاحظ هنا، أنَّ الذي يقول هذا، هو لاهوتي بيزنطي، برغم أنَّ الكنيسة البيزنطيَّة، كانت وراء هذا الخطأ، بدءاً من الرَّاهب أنسطاسيوس السِّينائي (٧٠٠م) رئيس دير سانت كاترين.

13- *Dictionaire de spiritualité*, vol. 12, Paris, 1983, p. 943 ; Cross, F.L., & Livingstone, E.A., *The Oxford Dictionary of the Christian Church* (*ODCC*), (2nd edition), 1988, p. 1059.

الثَّاني: أنه برغم وجود الاعتراف السِّري على الكاهن في الكنيسة منذ بواكيرها الأولى، بشهادة أقوال آبائها ومعلِّميها، إلاَّ أنه ولا واحد من آباء الكنيسة ذَكَرَ أنه يوجد نصٌّ كتابيٌّ في كتاب العهد الجديد، يُثبت الاعتراف السِّري على الكاهن[١٤]. فالشَّواهد الكتابيَّة التي تتحدَّث عن الاعتراف بالخطايا في كتاب العهد الجديد، هي بالتَّحديد أربعة شواهد.

(١) «واعتمدوا منه (أي من يوحنَّا المعمدان) في الأردن معترفين بخطاياهم» (متى ٣:٦).

(٢) «وكان كثيرون من الذين آمنوا، يأتون (إلى الآباء الرُّسُل) مقرِّين ومخبرين بأفعالهم» (أعمال ١٩:١٨).

(٣) «اعترفوا بعضكم لبعض بالزَّلات وصلُّوا بعضكم لأجل بعض لكي تُشفوا» (يعقوب ٥:١٦).

(٤) « إن قُلنا إنه ليس لنا خطيئة، نُضلُّ أنفسنا وليس الحق فينا. إنْ اعترفنا بخطايانا، فهو أمينٌ وعادلٌ حتى يغفر لنا خطايانا، ويطهِّرنا من كلِّ إثم» (١يوحنا ١:٨، ٩).

هذه الشَّواهد الكتابيَّة، لا تنصُّ صراحة على الاعتراف السِّري على الكاهن، إذ لم يستخدمها أحد آباء الكنيسة شرقاً وغرباً ليُثبت ذلك، باستثناء القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م)، الذي حاول أن يُثبت وجود الاعتراف السِّري على الكاهن من كتاب العهد الجديد، في تعقيبه الآية: «اعترفوا بعضكم لبعض بالزَّلات، وصلُّوا بعضكم لأجل بعض لكي تُشفَوا» (يعقوب ٥:١٦)، فيقول:

[ليس المقصود أن يعترف الكهنة على العلمانيِّين، كما يعترف هؤلاء لهم ... بل هي على حدِّ قولك: علِّموا بعضكم بعضاً، وعالجوا أحدُكُم الآخر، وليُسعف الواحد منكم صاحبه. بمعنى أنَّ العالم يعلِّم الجاهل، والطَّبيب يعالج المريض، والقوي يشدِّد الضَّعيف، وقس على ذلك. ومن هذا يتَّضح أنَّ البعض الذي نعترف له، هُم كهنة الله الأمناء ...] (تفسير يوحنَّا ١:٨-١٠).

وهو تفسيرٌ يُحمِّل الآية المذكورة، أكثر ممَّا تحتمل، لأنَّ تكملة نفس الآية يقول: «وصلُّوا بعضكم لأجل بعض» فهل معنى هذا أنَّ العلمانيِّين لا يُصلُّون من أجل الكهنة والإكليروس؟ فنحن نعرف أنه في القُدَّاس الإلهي، يُصلِّي الشَّعب من أجل البطريرك والأساقفة والكهنة.

إنَّ كنيسة الإسكندريَّة صاحبة مدرسة التَّفسير المجازي للكتاب المقدَّس، لم تنهج أسلوب القدِّيس أغسطينوس في تفسيره السَّابق ذكره، لكي تجد من الكتاب المقدَّس، شاهداً عن الاعتراف السِّري على الكاهن. لأنَّ التَّقليد المستقر في الكنيسة هو الذي يدعِّم هذا التَّعليم ويؤكِّده. ومن هنا يظهر لنا أهميَّة التَّقليد الآبائي إلى جانب الكتاب المقدَّس.

أقول هذا لكي أعيدُ التَّأكيد على مبدأ هام، وهو أنَّ الحياة الإيمانيَّة واللِّيتورجيَّة للكنيسة القبطيَّة، كإحدى الكنائس التَّقليديَّة، تعتمد على مصدرَين أساسيَّين، الأوَّل هو الكتاب المقدَّس، والثَّاني هو تسليم الرُّسُل المحفوظ في كتابات وأقوال آباء الكنيسة ومعلِّميها. وهذان المصدران هما على قدم المساواة في الأهميَّة، ولهما نفس القوَّة. وعلى رأي القدِّيس باسيليوس الكبير، الذي يقول بأننا إذا أهملنا الواحد، نجرح الآخر.

يقول مار أفرآم السِّرياني (٣٠٦-٣٧٣م):

[التَّوبة هي أُم الحياة، وطوبى لمن يولد منها ... ليس من تمسَّك برجائك ونزل إلى الجحيم. ولا من صعد إلى السَّماء بدونك. من يرى الله بغيرك؟ من تمسَّك برجائك ووقع في يد الشيطان؟ ومن تطهَّر و لم تكوني أنت التي غسلتيه؟ مباركةٌ أنت يا أُمَّ الغفران، يا من أعطانا إيَّاك الآب المملوء رحمة ...].

هذا الذي يليق به المجد والكرامة والسُّجود، مع ابنه الصَّالح يسوع المسيح، والرُّوح القُدُس، إلى آباد الدُّهور آمين.

١٤- في المقابل، فإنَّ الاعتراف لله بالخطايا في العهد القديم، وأمام أحد الأنبياء كشاهد، تدعمه شواهد كثيرة. انظر مثلاً: لاويين ٥:١-٦ ؛ لاويين ٢٦:٣٩-٤٥ ؛ عدد ٥:٦، ٧ ؛ تثنية ٢٦:٣ ؛ يشوع ٧:١٩ ... الخ.